الدعوة إلى الله

عباد الله نسير في هذه الرياض الطيبة؛ رياض الحج، نسير في هذه الرحلة الطيبة نقطف ثمارها، علنا نذوق من طيب طعمها، ونستنشق من عبير عطرها، ونقترب من خالقها وبارئها، وها نحن أمام معنى عميق عظيم فيه الخير بل هو الخير.

ألم تنتبهوا عباد الله إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ٢٧﴾ [الحج: ٢٧]؟!! أي: ادع الناس إلى هذا المنسك العظيم.

عباد الله، إن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يقيم دينه وأحكامه بلفظ (كن)، ولكن الله قدر أنه لا بد من الدعوة إلى الله، ولابد من التبليغ، فنرى رسول ﷺ يذهب معلمًا الناس في حجة الوداع قائلًا: (**خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ**)[1].

نعم أيها الإخوة المسلمون إننا نتعلم من ذلك الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى.

ولم لا وهو درس عظيم والأمة في غاية الاحتياج إليه؟!! فإن المتتبع لأحوال المسلمين في شتى بقاع الأرض؛ في المشرق وفي المغرب، ليجد البؤس والهوان، ليجد الهزيمة والانحطام، ليجد قوى الشرق والغرب قد تكالبت عليهم، واجتمعت قوى الكفر واتحدت عليهم عسكريًا، وسياسيًا، واقتصاديا، وفكريًا، فتارة يقتلون المسلمين، وتارة يغزونهم فكريًا، ولا يمر يوم إلا وما بعده أشد.

وبأقل تفكير وأدنى معرفة نعلم أن كل ذلك الذل وكل ذلك الهوان لأننا ابتعدنا عن كلام الرحمن، كل ذلك لأننا تركنا النهج القويم واتبعنا من لا خلاق لهم ولا دين.

فإلى متى هذا الخضوع؟ وكم زمن هذا الخنوع؟

أنترك أنفسنا حتى يقضوا على البقية الباقية من ديننا، ومجدنا، وتراثنا؟

[1] أخرجه البيهقي رحمه الله في السنن الكبرى (9524)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (7882).

لابد أن نقف أمام أنفسنا وقفة حتى نتدارك ما فقدناه، فنقف صفًا أمام ما يغضب الرحمن سبحانه وتعالى؛ حتى نكون أهلًا للتمكين والغلبة.

ولا يتأتى ذلك إلا إذا تواصينا بالحق، وأيقظ القائم منا النائم، وعَلَّم العارف منا الجاهل.

ولكننا نرى الفساد أمام أعيننا فلا يتحرك لنا ساكن، إن ذلك باعث على هلاكنا إن لم تدركنا رحمة ربنا، ولهذا يقول الله تعالى: ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾** ﴾[آل عمران: ١٠٤].

ويقول جل شأنه: ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾** ﴾[آل عمران: ١١٠].

فإذن عباد الله، النصرة والنجاة باتباع نهج الرسول ﷺ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

واعلموا عباد الله أن هذه الدعوة هي صنعة الأنبياء، فشرف الصناعة بشرف صاحبها فها هو رسول الله ﷺ يقول: (**خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ**)[1]، (**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَة**)[2].

فقد وظف رسول الله ﷺ أمته للدعوة إلى الله، فهل قبلت هذه الوظيفة؟

ولقد أرسى النبي المختار ﷺ قاعدة هامة في الدعوة إلى الله، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا؛ فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ؛ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ؛ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ**)[3].

إذن الأمر قد انتهى، فلابد وأن يكون لك موقف مع ما يغضب الله سبحانه وتعالى.

---

[1] سبق تخريجه قريبا.

[2] أخرجه البخاري رحمه الله في صحيحه (3461).

[3] أخرجه مسلم رحمه الله في صحيحه (49).

فإن كنت علمت أن شيئا معينا منكر، وعلمت أن تغيير هذا المنكر لا يؤدي إلى منكر أعظم منه، فعليك باتباع القاعدة.

فغير هذا المنكر بيدك إن كنت مسئولًا، كأن يكون هذا المنكر في بيتك، وفي متجرك، أو كنت مسئولًا في الدولة ولك حق تغيير المنكر بيدك.

فإن كنت غير ذلك كأن يكون هذا المنكر في الشارع مثلًا، أو في مكان ما، أو مع شخص أنت غير مسئول عنه، فتكلم بالتي هي أحسن، وعلمه الصواب، وقل ما تيسر حتى يرجع إلى الحق.

فإن عدمت هذا وذاك؛ فليتمعر وجهك يا رجل عندما ترى حرمات الله تنتهك، فلتشعر بالأسى والحزن ويظهر ذلك على صفحات وجهك عندما ترى المعاصي بعضها فوق بعض.

ولكن ترى المعصية وترى الفساد ولا تغيره ولا تنصح، بل تمازح فاعله كأنك تؤيده، فهذا هو الضلال، وهذا هو الخطأ.

وها هو رسول الله ﷺ كما عودنا فهو القدوة في كل ما يقول، فها هو مثال عملي لرسول الله ﷺ، فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ: (**رَأَى خَاتَمًا مِنْ ذَهَبٍ فِي يَدِ رَجُلٍ، فَنَزَعَهُ فَطَرَحَهُ، وَقَالَ: يَعْمِدُ أَحَدُكُمْ إِلَى جَمْرَةٍ مِنْ نَارٍ فَيَجْعَلُهَا فِي يَدِهِ، فَقِيلَ لِلرَّجُلِ بَعْدَ مَا ذَهَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: خُذْ خَاتِمَكَ انْتَفِعْ بِهِ، قَالَ: لَا وَاللَّهِ، لَا آخُذُهُ أَبَدًا وَقَدْ طَرَحَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ**)[1].

فانظروا إلى فعله ﷺ وهو المسئول، له أن يغير المنكر بيده، فانظروا إلى الداعي وانظروا إلى المدعو وكيف استجاب.

فليوص بعضنا بعضا ولا تستمع إلى وسوسة الشيطان أو تظن أن الدعوة موقوفة فقط على الدعاة والعلماء.

---

[1] أخرجه مسلم رحمه الله في صحيحه (2090).

أخي في الله إذا علمت أن شيئا معينا منكر؛ فانه عنه، وإذا علمت أنه معروف؛ فأمر به.

ليس شرطًا أن تكون حافظًا للقرآن حتى تحبب أولادك في كلام الرحمن ليس شرطًا.

ليس شرطًا أن تكون وليًا من أولياء الله الصالحين حتى تقرب من تعولهم لدين رب العالمين، ليس شرطًا.

ليس شرطًا أن تكون من المحققين المدققين حتى تنهي هذا الفساد الذي يبثه الإعلام في كل وقت وحين، ليس شرطًا.

ليس معنى ذلك أن نترك العلم ولا نتعلم لكن عليك كما قال الله تعالى: ﴿ **وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣** ﴾ [العصر: ١ – ٣].

فعليك أن تتعلم ما تيسر وتعمل به، تعلم ما يجب عليك أن تتعلمه، تعلم كيف تتوضأ، وتصلي، وتزكي، وتصوم، وتحج، وتبيع، وتشتري، وتنكح، اعرف عقيدتك ثم بلغ ما تيسر، هكذا نكون أمة متماسكة تستطيع أن تميز الحق من الباطل، فإذا دسوا إلينا السم في العسل أو الأفكار الهدامة؛ فلن تؤثر فينا لأننا علمنا نهج نبينا محمد ﷺ.

فإن تركنا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بعد كل هذا؛ فماذا يحدث لنا؟

الجواب: يحدث لنا الخزي، والعار، والهزيمة، والانكسار، وهذا ما علمه إيانا الرسول ﷺ، فعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال ﷺ: (**مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا؛ هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ؛ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا**)[1].

[1] أخرجه البخاري رحمه الله في صحيحه (2493).

فإن تركنا الراشي؛ هلكنا جميعًا، وإن نصحناه وأخذنا على يده؛ نجونا جميعًا.

وإن تركنا الزاني؛ هلكنا جميعًا، وإن نصحناه وأخذنا على يده؛ نجونا جميعًا.

وإن تركنا النساء يتبرجن؛ هلكنا جميعًا، وإن نصحناهن وأخذنا على أيديهن؛ نجونا جميعًا.

وإن تركنا تربية الأولاد تربية إسلامية؛ هلكنا جميعًا، وإن بذلنا جهدنا وأخذنا على أيدي المقصرين؛ نجونا جميعًا.

وإن تركنا الفساد؛ هلكنا جميعًا، وإن أصلحناه؛ نجونا جميعًا.

لا تقل: إني مادمت أفعل الخير فقد نجوت، لا تقول ذلك، فإن تركت الخبث؛ فهذا تقصير منك، فافعل ما في وسعك.

فإن تركنا الباطل، ولم ننكره؛ انقلب الباطل مع الوقت حقًا والحق باطلًا.

فمن منا يا ترى يكون جنديًا من جنود الله؟

وها هو رسولنا ﷺ فعن أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها عن النبي ﷺ: **(لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ اليَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا، قَالَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الخَبَثُ)**[1].

إذا كثر الخبث؛ فالأمر يكون جلل، إذا كثر الخبث؛ يهلك الجميع.

إذن: فماذا تقول إذن لربك سبحانه وتعالى؟ ماذا تقول وقد حذرك رسولك ﷺ؟

ألم تنظر إلى مجتمعاتنا الإسلامية كيف كثر الخبث فيها؟!

فكم مرة في اليوم قمت ناصحًا آمرًا بالمعروف وناهيًا عن المنكر؟!!

هل تريد أن تكون مثل بني إسرائيل الذين قص الله قصتهم في كتابه، يقول جل شأنه:

﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ

[1] أخرجه البخاري رحمه الله في صحيحه (3346)، أخرجه مسلم رحمه الله في صحيحه (2880).

﴿تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ١٦٣﴾ [الأعراف: ١٦٣].

القرية يقال أنها (أيلة) المسماة الآن بالعقبة على ساحل البحر الأحمر.

فقد ابتلاهم الله سبحانه وتعالى و أمرهم أمرًا ليميز الخبيث من الطيب، أمرهم ألا يصطادوا يوم السبت، فماذا فعلوا عباد الله؟

﴿وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ١٦٤﴾ [الأعراف: ١٦٤]، فانقسموا إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: أطاعوا الله، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر.

القسم الثاني: أطاعوا الله، ولكنهم سكتوا؛ فلم يأمروا بمعروف، ولم ينهوا عن منكر.

القسم الثالث: عصوا الله سبحانه وتعالى واصطادوا.

وكان الحوار بين القسم الأول والقسم الثاني، قالوا لهم: ﴿وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ﴾، فكان الرد العظيم الذي نريد أن نتعلمه من القسم الأول من هؤلاء الذي أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر: ﴿قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾، أي: نفعل ما علينا حتى يكون عندنا العذر عند الله غدًا إن سألنا، والله أعلم، نقول: لقد تكلمنا وقلنا كلمة حق، ولعلهم يتقون.

فماذا فعل الله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ١٦٥﴾ [الأعراف: ١٦٥].

تكلم الله عن قسمين فقط؛ أنجى الله القسم الأول الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، وأهلك القسم الثالث العصاة.

فماذا عن القسم الثاني؟

من أهل العلم من قال: إن الله لم ينج إلا الطائفة التي أمرت بمعروف ونهت عن منكر.

ومن أهل العلم من يرى أن القرية لم تنقسم إلا لقسمين فقط، وجعلوا قسمًا وهو من أمر بمعروف ونهى عن المنكر وهم الناجون، والقسم الثاني هم من عصى ومن سكت.

وإنا لله وإنا إليه راجعون

إذن عباد الله، علينا أن نكون ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ثم يدعون به.

ولكن فليحذر الداعي إلى الله من آفة عظيمة قد قالها الله سبحانه وتعالى في كتابه:

﴿ **أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ** ﴾ [البقرة: ٤٤].

ويقول جل شأنه ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢** ﴾ [الصف: ٢].

فيا عباد الله احذروا أن تأمروا بمعروف ولا تفعلوه، أو تنهوا عن منكر وتفعلوه.

ولكن اعلم رحمني الله وإياك أن المقصود من ذلك هو من يأمر ولا يريد أن يفعل.

أما الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حتى إن كان لا يفعل ما يقول ولكن في نيته أن يفعل ويقاوم نفسه؛ فليس هذا هو المقصود.

نعم عباد الله من الناس من يرائي بما يقول، فعن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: (**يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ، فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِالرَّحَى، فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ، فَيَقُولُونَ يَا فُلَانُ: مَا لَكَ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، قَدْ كُنْتُ آمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ**)[1]، تندلق أقتاب بطنه: أي تخرج أمعاؤه.

[1]أخرجه البخاري رحمه الله في صحيحه (3267)، أخرجه مسلم رحمه الله في صحيحه (2989).

فيا عبد الله، عليك بتقوى الله، وعليك بالدعوة إلى الله، وليكن أول ما تدعوه هو نفسك، ولا تعجل ولا تيأس، كما قال الله تعالى: ﴿ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ١٦٤ ﴾ [الأعراف: ١٦٤].

وأنهي هذه الخطبة عباد الله بقصة لرجل عرف الدعوة وأحبها وفهمها، فقد ذهب إلى رجل من الأثرياء ولكنه أيضًا من البخلاء الذين لا يشركون مع الجنيه أحدًا، وذهب إليه يعرض عليه عمل الخير، ولكن الغني رفض، والآخر يحاول، والغني يبخل، وإذا بالغني يبصق في وجه الداعية، فيمسحها الداعية، ويقول: هذه لي، فماذا تعطيني لله؟!! وبهذه الكلمة دخل إلى صميم قلب الرجل ورجع وتاب إلى الله.

وهكذا عباد الله تعلمنا درسًا آخر من دروس الحج فيه من الدروس والعظات ما إن فقهناه وطبقناه كان لنا الخير العميم.

(لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لبيك)

نسأل الله الإخلاص والقبول